المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها في سور آل حم

د. هدى بنت دليجان الدليجان

- عضو هيئة التدريس بجامعة الملك فيصل .
- مستشار غير متفرغ بوزارة التعليم العالي .
- مديرة مكتب الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه بالأحساء .
- حصلت على درجة الماجستير من كلية الآداب للبنات بالدمام .
- حصلت على درجة الدكتورة من كلية الآداب للبنات بالدمام .

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله مِنْ شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَاديَ لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله، وحدَه لا شَريكَ لَهُ، وأَشهدُ أنَّ محمدا عبدُهُ ورَسُولُهُ ، بَلَّغ الرسَالَة، وَأدَّى الأَمَانَة، وَنَصَحَ الأمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه واقتفى أثره إلى يوم الدِّين . أما بعد :

فقد أنزل الله القرآن الكريم هاديا ودليلا إلى الصراط المستقيم، و فرقانا بين الحق والباطل، فتحدى به الأولين والآخرين من الإنس والجن أجمعين، وجعل هذا الكتاب الكريم معجزا في علومه وبيانه، فكان من وجوه الإعجاز العظيمة ارتباط سوره وآياته بعضها ببعض بروابط عظيمة في اللفظ والمعنى.

من أجل هذا اعتنى بعض المهتمين بعلوم القرآن الكريم من العلماء السابقين والمعاصرين بعلم مناسبة القرآن الكريم، وكان من فوائد هذا العلم الجليل؛ التأكيد على براعة الاستهلال في سور القرآن الكريم في تنوع أساليب فواتح السور الكريمة وتعدد موضوعاتها، وكذلك التأكيد على مناسبة فاتحة السورة لخاتمة السورة نفسها، وقد تناوله بعض المفسرين بالإشارة والتلميح لمناسبة فواتح سور القرآن الكريم لخواتمها، كأحد أساليب البيان العظيم لما في القرآن الكريم من علوم باهرة ومناسبات ظاهرة.

وقد اتفقت سور آل حم في براعة الاستهلال بالحديث عن القرآن الكريم والابتداء بالحرفين(حم)، وأكدت في مضامينها على موضوعات متشابهة، من أجل هذا ارتبطت هذه السور كلها برباط واحد وثيق، فهي كالأسرة الواحدة التي توالت فيها الأجزاء والمقاطع لتخدم غرضا عظيما هو بيان إعجاز القرآن الكريم.

من أجل هذا اخترت موضوع ((المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها في سور آل حم)) للبحث في أسرارها والتدبر في مناسبة الفاتحة للخاتمة في كل سورة من سور آل حم.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

- إن علم المناسبات القرآنية علم عظيم معجز لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي أسراره، وهو أحد أنواع علوم القرآن الكريم المهمة التي تتعلق ببيان معانيه وتفسير آياته وسوره.
- إن فواتح السور ترتبط بخواتمها في كل سورة بمعان عظيمة ومناسبة دقيقة، وفي هذا دلالة على حسن تناسق القرآن الكريم وكمال ترتيب سوره وآياته، فأحببت لفت الأنظار إليه والاهتمام به، كما اهتم به العلماء السابقون من المفسرين وغيرهم، فقد رأيته مبثوثا في تفاسيرهم ، فأردت جمعه والكتابة فيه.
- إن سور آل حم وحدة مترابطة وأسرة متناسقة، فأردت أن أتدبر هذه السور الكريمة لأبين روعة الإعجاز الإلهي الذي تضمنته كل فاتحة سورة من سور آل حم وارتباطها بخاتمتها المجيدة.
- إن هذا البحث لم يسبق الكتابة فيه بالرجوع إلى كثير من العناوين والموضوعات التي كتبت في التفسير –حسب علمي وإطلاعي-.
- وبسؤال أهل العلم والمختصين فأشاروا علي في الكتابة فيه، فاستعنت بالله الكريم في وضع خطة البحث بحيث تنقسم إلى ما يلي:

خطة البحث:

- المقدمة، وتتضمن :
- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

- خطة البحث.
- التمهيد: ويتضمن :

-دراسة سور آل حم، وفيه:

أ-تسميتها.		ب-خصائصها.

المبحث الأول: دراسة المقصود من فواتح السور، وخواتم السور، والمناسبة بينهما، والفائدة منها، ويتضمن ما يلي:

أولا- اهتمام العلماء بالكتابة في فواتح وخواتم السور.

ثانيا- المقصود بفواتح السور .

ثالثا- المقصود بخواتم السور .

رابعا- المقصود من المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها.

خامسا: الفائدة من البحث في المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها..

المبحث الثاني : دراسة المناسبة بين فواتح سور آل حم وخواتمها في كل سورة منها .

أولا- المناسبة بين فاتحة سورة غافر وخاتمتها.

ثانيا- المناسبة بين فاتحة سورة فصلت وخاتمتها.

ثالثا- المناسبة بين فاتحة سورة الشورى وخاتمتها.

رابعا- المناسبة بين فاتحة سورة الزخرف وخاتمتها.

خامسا- المناسبة بين فاتحة سورة الدخان وخاتمتها.

سادسا-المناسبة بين فاتحة سورة الجاثية وخاتمتها .

سابعا- المناسبة بين فاتحة سورة الأحقاف وخاتمتها.

خاتمة البحث : وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

وأسأل الله العظيم أن يوفقني في هذا البحث لتدبر آيات من القرآن الكريم ، والكتابة فيه على الوجه الذي يرضيه عني ، ويجعل لي من أمري رشدا.

التمهيد

دراسة سور آل حم

سور آل حم هي سبع سور ابتدأت ب (حم) وهي: (غافر- فصلت- الشورى- الزخرف- الدخان- الجاثية- الأحقاف) وهي مرتبة في المصحف، كترتيبها في النزول باتفاق العلماء[(١)].

قال السيوطي:" ومن هذا النوع مناسبة أسماء السور لمقاصدها، وفي العجائب للكرماني :إنما سميت السور السبع (حم) على الاشتراك في الاسم لما بينهن من التشاكل الذي اختصت به، و هي إن كل واحدة منها استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام"[(٢)].

تسميتها:

تسمى هذه السور بآل حم والحواميم، قال الأزهري :"وقد قال بعضهم في قول الله:حم معناه: قضى ما هو كائن، وقال آخرون: هي من الحروف المعجمة، وعليه العمل"[(٣)].

و اختلف العلماء في تسميتها بآل حم أو الحواميم على قولين:

-القول الأول: جواز تسميتها بالاسمين (آل حم) أو (الحواميم)، ويوجه الإمام الطاهر بن عاشور جواز تسميتها بالاسمين بقوله:" ويدعى مجموعها (آل حم)، جعلوا لها اسم (آل) لتآخيها في فواتحها، فكأنها أسرة واحدة، وكلمة

(١) انظر: ابن عطية، القاضي أبو محمد الأندلسي، المحرر الوجيز،(٧/ ٤١٨ وما بعدها) وذكر في ذلك: الإجماع على مكية هذه السورة مع بداية كل سورة، وابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن،ص٨٢ .

(٢) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، معترك الأقران في إعجاز القرآن،(١/ ٧٤) .

(٣) الأزهري،أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، (٤/ ١٤)، مادة(حم).

(آل) تضاف إلى ذي شرف، وربما جمعت السور المفتتحة بكلمة(حم) فقيل: الحواميم، جمع تكسير على زنة فعاليل، لأن مفرده مفاعيل وزنا، عرض له من تركيب اسمي الحرفين (حا) (ميم) فصارت كالأوزان العجمية مثل: قابيل وراحيل وما هو بعجمي، لأنه وزن عارض لا يعتد به، وجمع التكسير على فعاليل يطرد في مثله، وقد ثبت أنهم جمعوا (حم) على حواميم في أخبار كثيرة عن ابن مسعود وابن عباس وسمرة بن جندب –رضي الله عنهم– "[1].

وكذلك رأيت الإمام ابن حجر العسقلاني في شرحه للأحاديث التي جاء في ذكرها سور آل حم، فيذكر الاسمين دون إيراد للخلاف فيهما [2].

القول الثاني: لا يصح تسميتها ب (الحواميم)، و قد نقل الإمام ابن كثير كراهية تسميتها بالحواميم فقال:" قد كره بعض السلف، منهم محمد بن سيرين أن يقال(الحواميم) ، وإنما يقال: (آل حم)"[3].

قال أبو عبيدة: "الحواميم سور في القرآن على غير قياس وأنشد:

وبالطواسين التي قد ثلثت وبالحواميم التي قد سبعت

قال: والأولى أن تجمع بذوات حاميم"[4] .

الترجيح: أرى –حسب بحثي– أنه يجوز تسميتها بالاسمين بدليل:

أخرج البخاري في صحيحه قال: حدثنا آدم، قال: حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة، قال: سمعت أبا وائل قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: ((قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذا كهذ الشعر، لقد عرفت النظائر التي

(١) ابن عاشور، الطاهر محمد، التحرير والتنوير، (٢٤/ ٧٦-٧٧)(بتصرف يسير) .

(٢) انظر: العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري،(٢/ ٢٥٩).

(٣) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي،تفسير القرآن العظيم،(٧/ ١٢٦) .

(٤) أبو عبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، تحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياطي، (٢/ ٦٥)، والطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق:محمود شاكر، حاشية (٢٤/ ٤٨) .

كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل، سورتين من آل حم في كل ركعة))[١].

وأخرج البخاري في صحيحه قال: حدثنا عبدان عن أبي بن حمزة، عن الأعمش، عن شقيق قال: قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ((لقد تعلمت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرؤهن اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبدالله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه، فقال : عشرون سورة من أول المفصل على تأليف ابن مسعود، آخرهن من الحواميم،(حم الدخان، وعم يتساءلون)))[٢].

وفي هذه الرواية "شقيق هو ابن سلمة، وهو أبو وائل، مشهور بكنيته أكثر من اسمه"[٣]، وفي ورود الاسمين كما في الحديثين عن راو واحد دلالة على جواز تسميتها بالاسمين، ولم يرد النهي عن تسميتها بالحواميم، فلا ما نع من ذلك، والله أعلم.

خصائصها:

عن ابن عباس وجابر بن زيد رضي الله عنهم قال: ((إن الحواميم نزلت عقب الزمر، وإنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف :المؤمن (غافر)، ثم السجدة(فصلت)،ثم الشورى، ثم الزخرف ، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف، ولم يتخللها نزول غيرها))[٤].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((آل حم~ ديباج القرآن))[٥]، ووقفه الحاكم على ابن مسعود[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، كتاب الأذان، (١٠٦) الجمع بين السورتين في ركعة، والقراءة بالخواتم،..،ح(٧٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب(٦)تأليف القرآن،ح(٤٩٩٦).

(٣) العسقلاني، فتح الباري،(٩/ ٤٢).

(٤) السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن،(٣/ ٣٢٠).

(٥) أخرجه أبو عبيد، فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، (٢/ ٦٥)، وقال عنه الإمام الألباني:موضوع عن أنس، انظر: الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير،ح(٢٧٩٩) (٣/ ١١٤).

(٦) الحاكم، أبو عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين،(٢/ ٤٣٧).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ((إن لكل شيء لبابا، ولباب القرآن آل حم~، أو قال الحواميم))[1].

وقال الإمام ابن عطية في وصف موضوعات سور آل حم:" إنها خلت من الأحكام، وقصرت على المواعظ والزجر، وطرق الآخرة محضا، وأيضا فهي قصار لا يلحق القارئ فيها سآمة"[2].

فالوحدة الموضوعية لسور آل حم تربط هذه السور معا برباط وثيق، فهي تعنى بأصول العقيدة كسائر السور المكية، لذا جاءت آياتها عميقة في إثبات وحدانية الله، وتنزيل القرآن، والبعث، ووصف ملائكة العرش، ووصف الصراع بين الحق و أهل الباطل [3].

---

(١) أخرجه أبو عبيد، فضائل القرآن،(٢/ ٦٤) .
والآثار الواردة في فضائل آل حم لم يرفعها الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهي موقوفة، وتوقف في صحتها كثير من العلماء، والله أعلم.

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، (٧/ ٤١٨).

(٣) انظر: الزحيلي،(أ.د) وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج،(٢٤/ ٦٩).

المبحث الأول

المقصود من فواتح السور، وخواتم السور، والمناسبة بينهما، والفائدة منها.

أولا: الكتابة في فواتح و خواتم السور:

يعد الإمام الزركشي (ت:٧٩٤هـ) ممن تكلم في هذا العلم من علوم القرآن الكريم، بل أفرد للفواتح والخواتم مبحثين في كتابه البرهان في علوم القرآن وهو:"النوع السابع: في أسرار فواتح السور"(١)، "والنوع الثامن في خواتم السور ذكر فيه بعض خواتم السور وفائدته، وجعل تحته:

فصل: [في مناسبة فواتح السور وخواتمها]، وفصل[في مناسبة فاتحة السورة بخاتمة السورة التي قبلها]"(٢) .

يقول أحد الباحثين في علوم القرآن الكريم:"خواتم السور روح التأصيل في البرهان واضحة جدا، ولم يسبق الزركشي أحد في أسلوب عرضه في هذا النوع، ومادته فيها إبداع واستقلالية، وحسن نظر، إذ لم يسم أحدا سوى الزمخشري (ت:٥٣٨هـ) في الكشاف(٣)، والكواشي(ت:٦٨٠هـ) في تفسيره(٤)،

---

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن ،(١/ ١٦٤وما بعدها) .
قال المحقق: وألف في الفواتح ابن أبي الاصبع كتابا سماه(الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)، ونقل عنه السيوطي في الإتقان.

(٢) الزركشي، البرهان ،(١/ ١٨٢وما بعدها) .

(٣) تتبعت تفسير الكشاف لسور آل حم ، فلم أقف له على ذكر للمناسبات في السور أو الخواتم، والله أعلم .

(٤) الإمام أحمد بن يوسف بن حسن أبو العباس الكواشي، المفسر الشافعي، له كتاب التفسير الكبير والتفسير الصغير،ولد سنة (٥٩٠هـ)،انظر: طبقات المفسرين للداودي،١/ ٩٨ .

اللذين نقل عنهما من تفسيريهما، وقد ضم تفسير الفخر الرازي(ت:٦٠٦هـ) بعض اللفتات التي تتعلق بخواتم السور"[١].

وقد اعتنى الإمام ابن الزبير الثقفي (ت: ٧٠٨هـ) في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن بالحديث عن المناسبة بين السور والآيات [٢]، ولم يفصل في فواتح وخواتم السور بل ذكرها إجمالا في مناسبة السورة، وتبعه على ذلك الإمام البقاعي(ت:٨٨٥هـ) في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ثم أفرد الإمام السيوطي(ت:٩١١هـ) الاهتمام بالفواتح والخواتم في كتابه مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع[٣]، ونبه على ذلك في كتابه المشهور الإتقان في علوم القرآن.

ثانيا- المقصود من فواتح السورهي :

من الفاتحة،"وفاتحة الشيء أوله، وفواتح القرآن: أوائل السور، الواحدة: فاتحة، وأم الكتاب يقال لها:فاتحة القرآن" [٤].

---

(١) حيدر ،(د) حازم سعيد، علوم القرآن بين البرهان والإتقان(دراسة موازنة)، ص٥٤٨-٥٤٩(بتصرف) .

(٢) انظر : آل هويمل (د)، إبراهيم بن سليمان، علم المناسبات بين المانعين والمجيزين، بحث منشور مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس والعشرون، المحرم١٤٢٠هـ،ص٩٣-١٤٠.

(٣) وهو كتاب صغير في عدد صفحاته، عظيم في العلم الذي بحث فيه، وهو مخطوط، اعتنى به وحققه: د. محمد يوسف الشربجي، ونشر في الأحمدية، وهي مجلة علمية محكمة تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، العدد الرابع،جمادى الأولى/ ١٤٢٠هـ-أغسطس/ ١٩٩٩م، ص٧٣-١١٢.
وذكر السيوطي –رحمه الله– في هذا الكتاب المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، وذكر في ذلك المناسبة في سور آل حم، واختار ما يناسب الافتتاحية من الخواتم بحسب منتصف السورة، وعلق على ذلك المحقق، انظر: ص٩٧-٩٨.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة(فتح)(١٠/ ١٧٢) .

وفواتح السور هي : الآية أو الآيات التي تفتتح بها السورة.
قال الإمام الزركشي:" وقد افتتح سبحانه وتعالى كتابه العزيز بعشرة أنواع من الكلام، لايخرج شيء من السور عنها، وذكرها بالتفصيل وهي:الاستفتاح بالثناء، الاستفتاح بحروف التهجي، الاستفتاح بالنداء، والاستفتاح بالجمل الخبرية، الاستفتاح بالقسم، الاستفتاح بالشرط، الاستفتاح بالأمر، الاستفتاح بالاستفهام، الاستفتاح بالدعاء، والاستفتاح بالتعليل"[1].

ثالثا- المقصود من خواتم السور:

الخواتم هي من الفعل ختم ، قال ابن سيده: ختم الشيء يختمه، ختما : بلغ آخره، وختم الله له بخير، وخاتِم كل شيء: وخاتمته:عاقبته وآخره، واختتمت الشيء: نقيض افتتحه، وخاتمة السورة: آخرها، ولا تجمع خاتما على خواتيم إلا اضطرارا، وفي التنزيل العزيز﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ ﴾ [المطففين:٢٦] :أي آخره[2].

ولم يعرض العلماء من قبل تعريفا لخواتم السور في علوم القرآن، مع أهميته، وذلك لتحديد الضابط الذي يبني عليه الباحث اختياره لهذه الخاتمة[3].

والذي أراه أنه يمكن تعريف خواتم السور بأنها : المقطع الذي يقع في آخر الآيات من السورة سواء كانت آية واحدة أم مجموعة آيات.

وقد اختلف العلماء في تحديد خواتم السور، فمنهم من قال بالمقطع الذي يتضمن ختام السورة، ومنهم من قال بالآية الأخيرة التي تجمع لباب السورة وتربط أولها بآخرها.

---

(١) الزركشي، البرهان ،(١/ ١٦٤-١٨١) (باختصار) .
(٢) ابن منظور، لسان العرب،مادة (ختم)،(٤/ ٢٥) .
(٣) حيدر ، علوم القرآن،ص٦٢٥ .

ومن المعلوم أن خواتم السور هي نهاية السورة التي بعدها يبتدأ بسورة أخرى ويستفتح بعدها ب بسم الله الرحمن الرحيم كما هو مكتوب ومقروء في المصاحف المتواترة إلا ما كان من سورة الأنفال وافتتاح سورة براءة بدون بسملة.

فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كان النبي ﷺ لا يعلم ختام السورة حتى ينزل بسم الله الرحمن الرحيم))[١].

من أجل هذا لا يمكن تحديد الخواتم بآيات أو آية، والقطع بذلك تأولا ، لعدم وجود نص في ذلك، لكن يجب الوقوف على معاني خواتم السور، سواء كانت آيات متعددة مثل خواتم سورة البقرة، وخواتم سورة آل عمران وغيرهما، أم كانت آية كما في سورة النساء وغيرها.

وأكد علماء علوم القرآن الكريم كالزركشي والسيوطي وابن عقيلة وغيرهم في الكلام على فواتح و خواتم السور، وعدوه من أنواع علوم القرآن الكريم، قال الإمام الزركشي في البرهان بعد الحديث عن مناسبة فواتح السور لخواتمها:"وقد أتينا على نصف القرآن ليكون مثالا لمن نظر في بقيته"[٢].

رابعا- المقصود من المناسبة بين الفواتح والخواتم في السورة هي:

الرابطة التي تربط بين فاتحة السورة وخاتمتها.

قال الإمام العز بن عبد السلام : " المناسبة علم حسن، لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام في أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره"[٣].

وقد جعل الدكتور الهويمل المناسبة في القرآن الكريم أنواعا بقوله:،"يمكن أن نقسم المناسبات إلى قسمين:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين،(١/ ٣٥٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) الزركشي، البرهان، (١/ ١٨٥) .

(٣) المرجع السابق، والسيوطي، الإتقان (٣/ ٣٢٠).

١-المناسبات في السورة الواحدة.   ٢- المناسبات بين السور.

ولكل قسم من هذه الأقسام جزئيات تندرج تحته:

فالقسم الأول يندرج فيه:

أ- المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

ب- المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة.

ت- المناسبة بين الآيات.

ث- المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها" [١].

قال الإمام السيوطي في الإتقان:" المناسبة في اللغة: المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين وضده، ونحوه ، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[٢].

والمتتبع لكتاب الإمام السيوطي مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع يلحظ عدم تخصيص المناسبة بين الفواتح والخواتم بضابط أو معيار معين، بل الأمر عنده نسبي، وإنما كان يبحث في المناسبة بين اللفظ الذي يأتي في الافتتاحية وما يشاكله من اللفظ المقارب له في الخاتمة ولو كانت في منتصف السورة [٣] .

وقد ذكر علماء علوم القرآن الكريم كالزركشي والسيوطي-تحديدا- المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، إلا أنهم اقتصروا على بعض السور، ولم يستوعبوه

(١) الهويمل، علم المناسبات بين المانعين والمجيزين،ص١٠٩ .

(٢) السيوطي، الإتقان،(٣/ ٣٢٠) .

(٣) انظر: الشربجي، حاشية تحقيق مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، الأحمدية،ص٩٠.

كله، وهذا يدل دلالة على أصل هذا العلم والحاجة إلى التوسع في مباحثه، وهذا الذي عليه الاختيار في هذا البحث في دراسة المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها.

خامسا: الفائدة من البحث في المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها.

قدمت –سابقا– أن علم المناسبات في القرآن الكريم علم عظيم،"فمن علم أن القرآن الكريم كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"[١].

وحيث إن علم المناسبات يربط أجزاء القرآن الكريم بعضه ببعض، ومرجعه إلى الفهم والتدبر لقلة النصوص والآثار فيه، وخوفا من الوقوع في التأويل مما أعرض عنه بعض المفسرين تنزها من الوقوع في التفسير بالرأي المذموم ، ويؤكد ذلك بعض الباحثين بقوله:" وقلة اعتناء المفسرين بهذا العلم إنما يعود أساسا لدقته، ولما يستجره من التكلف، فيما خفي من بعض وجوه المناسبة بين الآي أو السور "[٢].

وقد بنى القرآن الكريم كل سورة من سوره على معنى عظيم وجعل خاتمة السورة مرتبطة بفاتحتها ، وتحديد المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها علم جليل[٣]، وذلك لوجود معنى رابط بينهما ؛ عام أو خاص، لفظي أو عقلي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم بين الأفكار والموضوعات في الآيات، وذلك بحسب ما يعرف من الروابط في علم المناسبات، وفي ذلك خير كثير لمن تأمله وتدبره في التوصل إلى المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها، وقد بين الإمام الزركشي العلاقة بين الفواتح والخواتم في السورة بقوله :"هي مثل الفواتح في الحسن، لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة، مع

---

(١) السيوطي، الإتقان، (٣/ ٣٢٠) .

(٢) الفلاح،(د)سعيد بن جمعة، مقدمة البرهان في تناسب سور القرآن ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير ،ص٦٦ .

(٣) ابن عقيلة، محمد بن أحمد المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن،(٦/ ٣٠٤) .

إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يرتفع معه للنفوس تشوف النفس إلى ما يذكر بعد، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض، وتحميد، وتهليل، ومواعظ، ووعد ووعيد إلى غير ذلك" [١].

ويرى الدكتور الهويمل أن:" المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها واضح غاية الوضوح، فلا تكاد تجد سورة إلا وبين فاتحتها وخاتمتها مناسبة ظاهرة"[٢].

والمناسبة بين فاتحة السورة وخاتمتها يجعل أجزاء الكلام في السورة الواحدة بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط بين فاتحة السورة وخاتمتها، والوحدة الموضوعية للسورة، ويصير مجموع السورة كالبناء الواحد المحكم المتلائم الأجزاء، وهذا من أسرار القرآن الكريم.

(١) انظر: الزركشي، البرهان،(١/ ١٨٢)، والسيوطي، الإتقان (٣/ ٣٢٠).

(٢) الهويمل، علم المناسبات بين المانعين والمجيزين،ص١١٣.

المبحث الثاني

دراسة المناسبة بين فواتح سور آل حم وخواتمها في كل سورة منها [(١)]

أولا: المناسبة بين فاتحة سورة غافر وخاتمتها

افتتح الله سورة غافر بأول آية {حم} وذكر بعدها تنزيل الكتاب وصفته جل جلاله، قال تعالى ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [غافر:١-٢].

فقد جاءت هذه الافتتاحية الكريمة لسورة غافر لما تضمنته هذه السورة من الحديث عن المتكبرين والمجادلين، قال الإمام البقاعي: " ذكر من أسمائه هذين الاسمين العظيمين ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ تنبيها على انفراده بموجبهما، وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه تعالى بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق"[(٢)].

فالاستفتاح بتنزيل الكتاب دلالة قوية على عظمة هذا الكتاب وما فيه من الأخبار والأحكام والأوامر والنواهي، قال الإمام أبو جعفر بن الزبير:" لما تضمنت سورة غافر بيان حال المعاندين، وجاحدي الآيات، وأن ذلك ثمرة تكذيبهم وجدلهم، وكان بناء السورة على هذا الغرض بدليل افتتاحها وختمها "[(٣)].

لأن السورة اشتملت على موضوعين رئيسين وهما:

الأول: في بيان دلائل الإلوهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة.

والآخر: في التهديد والوعيد.

---

(١) لم التزم بما جاء في كتاب الإمام السيوطي،مراصد المطالع في تناسب السور والمقاطع لاختلاف المنهج الذي اتبعته في تحديد خاتمة السورة بالمقطع الأخير من السورة، وقد نبهت على المواضع التي وافقت فيها اختيار الإمام السيوطي، وأسأل الله الرشد والسداد.

(٢) البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٦/ ٤٨٣)(بتصرف) .

(٣) المرجع السابق، (٦/ ٥٤٩) .

فقال تعالى في خاتمة سورة غافر:

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر].

فالرابط بين موضوع السورة وخاتمتها البديعة عظيم، وذلك لأن هذه الخاتمة لها متعلق كبير بتهديد الكفار الذين يجادلون في آيات الله، المتكبرين على رسله الكافرين به، فلم يك ينفعهم إيمانهم حين حلول البأس، مع إقرارهم بوحدانية الله وكفرهم بشركائهم من دونه، لكن الأوان قد فات.

((فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)) في هذه الآية يذكر الله بأسه الذي يأخذ به المكذبين، قال الإمام الطبري: "فلم يك ينفعهم تصديقهم في الدنيا بتوحيد الله عند معاينة عقابه قد نزل، وعذابه قد حل، لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقا، إذ كان قد مضى حكم الله في السابق من علمه، أن من تاب بعد نزول العذاب من الله على تكذيبه لم تنفعه توبته"[(١)].

وهذا هو الختام البديع الذي يناسب جو السورة وطابعها الأصيل في ختم أعمال المتكبرين المجادلين بالخسارة الأكيدة، وهي سنة الله العادلة مع جميع الأمم التي تكبرت وجادلت، لم ينفعهم إيمانهم لما رأوا العذاب، قال تعالى ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾.

ويوضح الإمام ابن الزبير في بيان مناسبة قوله تعالى { فلا يغررك تقلبهم في البلاد} وخاتمة السورة بقوله:"وكأنه في معرض إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد، ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن،(٢٤/ ١٠٤).

قبلهم، وجدالهم في الآيات كجدالهم، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب، وسبق لهم في أم الكتاب"(١).

من أجل هذه المناسبة قال الإمام البقاعي:" وقد التف آخرها بما بين من كمال العزة وتمام القدرة وشمول العلم مما رتب من أسباب الهداية والإضلال والإشقاء والإسعاد والنجاة والإهلاك بأولها أي التفاف، واكتنفت البداية والنهاية بيان ذلك، مع ما اشتمل عليه الوسط أيضا منه أعظم اكتناف"(٢).

ويكفي في الدلالة على عظم منة الله ونعمته على جميع عباده الإتيان في فاتحة السورة بقوله تعالى {ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير}،قال الإمام القرطبي:" وأصل الطول : الإنعام والفضل، يقال منه: اللهم طل علينا أي أنعم وتفضل، قال ابن عباس رضي الله عنهما{ذي الطول} ذي النعم، وقال مجاهد: ذي الغنى والسعة، وقال الماوردي: والفرق بين المن والتفضل:أن المن عفو عن ذنب، والتفضل إحسان غير مستحق، والطول مأخوذ من الطول كأنه طال بإنعامه على غيره، وقيل: لأنه طالت مدة إنعامه،{إليه المصير} أي المرجع"(٣).

فكأنما أراد الله بهذه الافتتاحية التنبية على منته وفضله بتلك النعم العظيمة من الهداية والتوبة على من تاب ومغفرة الذنوب، والتذكير بشديد عقابه وأنه إليه المرجع والمصير ، من أجل هذه الفاتحة جاء التذكير بهذه الخاتمة البديعة.

" فالسورة تتحدث عن الإيمان والطغيان، وحال المتكبرين والمتجبرين في الأرض، وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتنكيل، ولعله مما يتفق مع هذه

(١) ابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن ، ص١٥٨.
(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٦/ ٥٤٦) .
(٣) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن،(١٥/ ٢٥٦)(بتصرف).

السمة افتتاح السورة بقوله ((غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لاإله إلا هو إليه المصير)) " [١].

فالله الذي أنزل الكتاب، هو العزيز الذي لا يغلب، العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وهو يغفر الذنوب جميعا، ويقبل التوبة عن عباده قبل وقوع العذاب عليهم، وهذا من منته وفضله على عباده، ومع ذلك فهذه سنة الله الخالدة في الأولين والآخرين، فإذا جاء العذاب لم يقبل منهم إيمان ولا توبة، وخسر الكافرون المجادلون المتكبرون أعظم خسارة .

ثانيا: المناسبة بين فاتحة سورة فصلت وخاتمتها [٢]

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت:١-٥] .

قررت هذه السورة في استهلالها موقف المشركين المعاندين من القرآن الكريم والنبوة بسبب الجهل الذي يغلف قلوبهم، والوقر الذي يغشى آذانهم، والحجاب الذي ضربوه على أنفسهم عن رؤية الآيات البينات، قال تعالى ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت: ٤-٥].

---

(١) قطب، سيد، في ظلال القرآن،(٥/ ٣٠٦٥)(بتصرف).

(٢) ذكر الإمام السيوطي في مراصد المطالع قال: فصلت في أولها{ فأعرض أكثرهم}[٤]، وفي آخرها{أعرض ونأ بجانبه}[٥١].

فهذه السورة الكريمة تعالج قضية كبيرة هي قضية الوحي وما يتعلق به من الإيمان بقضايا العقيدة الكبرى كالإلوهية والنبوة والكتب السماوية والحياة الآخرة، فقد تضمن الوحي الإخبار بهذه الأمور العظيمة، فمن أنكرها يوصف بأشد الصفات القبيحة في حواسه، وهو من كان قلبه في أكنة، وفي آذانه وقر، وجعل بينه وبين الحق حجابا كثيفا من الضلال والجحود.

قال الإمام ابن الزبير موضحا حال هذه السورة الكريمة:" وتضمنت هذه السورة العظيمة من بيان عظيم الكتاب وجلالة قدره وكبير الرحمة به ما لا يوجد في غيرها من أقرانها، كما أنها في الفصاحة تبهر العقول بأول وهلة، ولا يمكن للعربي الفصيح في شاهد برهانها أدنى توقف، ولا يجول في وهمه إلى معارضة بعض آياتها أدنى تشوف"(1).

من أجل هذا كانت هذه السورة شاملة لكل ما يراد تفصيله عن قضية الوحي، فهي تفتتح به في تفصيل ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ ﴾.

قال الإمام الطبري:" فصلت آيات هذا الكتاب قرآنا عربيا لقوم يعلمون اللسان العربي، {بشيرا} لهم يبشرهم إن هم آمنوا به، وعملوا بما أنزل فيه من حدود الله وفرائضه بالجنة، {ونذيرا} يقول: ومنذرا من كذب به ولم يعمل بما فيه بأمر الله في عاجل الدنيا وخلود الأبد في نار جهنم في أهل الآخرة، {فأعرض أكثرهم} يقول تعالى ذكره: فاستكبر عن الإصغاء له وتدبر ما فيه من حجج الله، وأعرض عنه أكثر هؤلاء القوم، الذين أنزل هذا القرآن بشيرا لهم ونذيرا، وهم

(1) ابن الزبير،البرهان في تناسب سور القرآن،ص١٥٩ .

قوم رسول الله ﷺ،{فهم لا يسمعون}يقول: فهم لا يصغون له فيسمعوا إعراضا عنه واستكبارا"[١].

وختمت هذه السورة الكريمة بقوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ [فصلت:٥٢-٥٤].

فيتبين من هذا التذييل الرائع للسورة الكريمة ارتباط أولها بآخرها، بقوله { قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم }كأنها الآية في سياق قوله جل جلاله { تنزيل من الرحمن الرحيم}، فارتباط الفاتحة بالخاتمة للوحدة الموضوعية المتناسقة بين أجزاء السورة الكريمة، ثم أوجب الله تعالى التأمل والتفكر في الآيات والأنفس، ليعلموا أن القرآن حق منزل من عند الله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

قال الإمام الطاهر بن عاشور في الخاتمة الكريمة: " استئناف ابتدائي متصل بقوله{ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم} إلى قوله { لفي شك منه مريب} فهذا انتقال إلى المجادلة في شأن القرآن رجع به إلى الغرض الأصلي من هذه السورة، وهو بيان حقية القرآن وصدقه، وصدق من جاء به، وهذا استدعاء ليعملوا النظر في دلائل صدق القرآن مثل إعجازه واتساقه، وتأييد بعضه بعضا ، وكونه مؤيدا للكتب قبله، وكون تلك الكتب مؤيدة له"[٢].

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن،(٢٤/ ١٠٦).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ١٦) .

وهذا الختام يناسب حال المشركين الذين أعرضوا عن الآيات بسبب إدعاءهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ ﴾.

"والواقع أن هذه السورة منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات تجول بالإنسان في ملكوت السموات و في الأرض، وفي أغوار النفس، وفي عالم القيامة، ويجري سياق السورة بموضوعاتها في شوطين اثنين متماسكي الحلقات:

الشوط الأول: يبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف المشركين منه.

الشوط الثاني: يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة، ويلي هذا: الحديث عن الذين يلحدون في آيات الله وفي كتابه.

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الأنفس والآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"(١).

قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤ ﴾ [فصلت :٥٣-٥٤].

فهذه الخاتمة فيها لطائف جليلة بالدعوة إلى رؤية علامات وحدانية الله وقدرته من إجراء الأمور وخوارق العادات من المعجزات البينات والكرامات مايشهد المرء بأنه الحق.

قال الإمام القرطبي :" وقيل المعنى: سيرون ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب{حتى يتبين لهم أنه الحق}فيه أربعة أوجه؛ أحدها: أنه

(١) قطب، في ظلال القرآن (٥/ ٣١٠٦)(بتصرف).

القرآن، والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ﷺ، ودعاهم إليه، والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق، والرابع: أن محمد ﷺ هو الرسول الحق"[١].

ولامانع من الجمع بين هذه الأقوال جميعا بالعود إلى الفاتحة الكريمة والاستهلال بالحديث عن القرآن الكريم الكتاب المفصل الذي بلغه الرسول الأمين وما جاء به من الشرائع الكاملة {كتاب فصلت آياته} فكلها حق يجب الإيمان به.

قال الطاهر بن عاشور في خاتمة السورة: " تذييلان للسورة وفذلكتان[٢] افتتحا بحرف التنبيه اهتماما بما تضمناه، فأما التذييل الأول فهو جماع ما تضمنته السورة من أحوال المشركين المعاندين إذ كانت أحوالهم المذكورة فيها ناشئة عن إنكارهم البعث، فكانوا في مأمن من التفكير فيما بعد هذه الحياة، فانحصرت مساعيهم في تدبير الحياة الدنيا، وانكبوا على ما يعود عليهم بالنفع فيها، وأما التذييل الثاني: فهو جامع لكل ما تضمنته السورة من إبطال لأقوالهم وتقويم لاعوجاجهم، لأن ذلك كله من آثار علم الله تعالى بالغيب والشهادة، وتأكيد الجملتين بحرف التأكيد مع أن المخاطب بهما لا يشك في ذلك لقصد الاهتمام بهما، واستدعاء النظر لاستخراج ما تحويانه من المعاني والجزئيات، وأطلق الشك على جزمهم بعدم البعث لأن جزمهم خلي عن الدليل الذي يقتضيه، وبهاتين (الفذلكتين) آذن بانتهاء الكلام فكان من براعة الختام"[٣].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،(١٥/ ٣٢٥).

(٢) فذلكة: كثر استعمال الطاهر بن عاشور- رحمه الله – لهذه الكلمة في تفسيره، ولم يستعملها غيره من المفسرين –فيما أعلم-، ولم أجد لها أصلا، انظر: ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور،لسان العرب.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(٢٥/ ٢٢) (بتصرف) .

فالدعوة الكريمة بالنظر والتدقيق في الآيات المذكورة في الآفاق وفي الأنفس للوصول إلى نتيجة مهمة؛ وهي اجتثاث الشك من النفوس، فتتوجه إلى الإيمان بالله تعالى، الذي أنزل هذا الكتاب مفصلا، وهذا من أعظم الإعجاز في التفاف المعاني بعضها مع بعض، أما إذا لم يتمكنوا من تلبية هذه الدعوة بالنظر في الأنفس والآفاق، ورؤية قدرة الله عز وجل عليهم، فسيبقون في شكهم وارتيابهم وإعراضهم وكفرهم.

ثالثا: المناسبة بين فاتحة سورة الشورى وخاتمتها [1]

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ ﴾ [سورة الشورى:١-٤].

ابتدأت هذه السورة في أسرة آل حم بالحرفين حم، وخصت هذه السورة بالحروف المقطعة عسق، على افتتاحية الحواميم دون غيرها، ويوجه الطاهر بن عاشور هذا الموضع بقوله:" وخصت بزيادة {عسق} على أوائل السور من آل حم، ولعل ذلك لحال كانوا عليه من شدة الطعن في القرآن وقت نزول السورة، فكان التحدي لهم بالمعارضة أشد، فزيد في تحديهم من حروف التهجي"[2].

قال تعالى﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ ، فقد ذكر في هذه الافتتاحية الكريمة الإشارة إلى أمر عظيم وهو الوحي، وذكر

(١) ذكر السيوطي في مراصد المطالع،الشورى في أولها{ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك}[٣]،وفي آخرها{ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا}[٥٢] ،وهو الاختيار الذي تبعته فيه .

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(٢٥/ ٢٦).

وجه الشبه بين وحي الله إلى رسوله الأمين نبينا محمد ﷺ والرسل السابقين الذين اصطفاهم الله تعالى لرسالته واختصهم بوحيه، ثم ذكر الاسمين الكريمين (العزيز الحكيم) لبيان الغرض من هذه السورة الكريمة وهو: " الإشارة إلى تحدي المعاندين بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن الكريم"(١).

واختتمت السورة بمقطع عظيم قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝ ﴾ [الشورى:٥٢-٥٤].

{وَمَا كَانَ } (الواو واو العطف) فكأنما عطف على ما سبق من حكاية أقوالهم الباطلة، وهو عود إلى إبطال شبه المشركين التي أشار الله تعالى إليها في قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾

والآية صريحة في أن هذه الأنواع الثلاثة أنواع لكلام الله تعالى الذي يخاطب به عباده.

قال الدكتور الزحيلي:" وفي هذه الآية توضيح أن الوحي إلى النبي ﷺ بالقرآن المشتمل على الشرائع التي تصلح البشر، وتهديهم إلى الحق، هو مثل

(١) المرجع السابق .

الوحي إلى الأنبياء السابقين، وهذا الختام للسورة مشابه لما بدئت به لينسجم البدء والختام"[١] .

بل في الخاتمة الكريمة تفصيل لما أجمل في فاتحة السورة من كيفية الوحي إلى الأنبياء السابقين بالتعريف بأنواعه وأقسامه، فذكرت الآية الأنواع الثلاثة للوحي وهي:

الأول- وهو الإلهام والقذف بمعان تلقى في القلب يقظة في الغالب أو في المنام، كرؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ذبح ولده، وقد يطلق الوحي على الإلهام المجرد، كما أوحي إلى أم موسى.

الثاني- سماع كلام من وراء حجاب: بأن يسمعه النبي من غير واسطة متيقنا أنه كلام الله من حيث لا يرى، كما كلم موسى عليه السلام ربه، وسماه وحيا .

الثالث: إرسال رسول: وهو إرسال رسول من الملائكة وهو الملك الموكل بالوحي جبريل –عليه السلام–، فيوحي ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما شاء أن يوحي، كما كان جبريل عليه السلام ينزل على الأنبياء بالوحي[٢] .

قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن النبي محمد ﷺ قد أعطي أنواع الوحي الثلاثة المذكورة في الآية السابقة، "فقد كان أهم غرض في هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من الله إلى محمد ﷺ، كما أوحي من قبله للرسل، كان العود إلى ذلك من قبيل رد العجز على الصدر"[٣].

(١) الزحيلي، التفسير المنير،(٢٥/ ١٠٦) .

(٢) انظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تفسير البغوي(معالم التنزيل)،(٧/ ٢٠٠).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(٢٥/ ١٤٠).

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ قال الإمام الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ، ماكنت تدري يا محمد أي شيء الكتاب ولا الإيمان الذين أعطيناكهما،{ولكن جعلناه نورا} يقول:ولكن جعلنا هذا القرآن وهو الكتاب نورا، يعني:ضياء للناس، يستضيئون بضوئه الذي بين الله فيه، وهو بيانه الذي بين فيه، مما لهم فيه في العمل به الرشاد، ومن النار النجاة {نهدي به من نشاء} نهدي بهذا القرآن،{والهاء} في قوله{به} من ذكر الكتاب، ويعني: نسدد إلى سبيل الصواب"[1].

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

ففي هذه الآيات الكريمة سمى الله القرآن روحا فبه تحيا القلوب والأرواح، وبه تصلح حال الدنيا والآخرة، ثم سماه نورا ليستضيء به من أراد أن يسلك طريق الحق، وهو صراط الله المستقيم، ثم وصف هذا الصراط في خاتمة جميلة ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ قال الإمام السعدي:" أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته،﴿ ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر فيجازي كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ﴾[2].

فالغرض من إيراد صفة الصراط في خاتمة السورة بأنه صراط الله الذي له ما في السموات والأرض عودا على ما ذكره في فاتحة السورة﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ ففيهما إثبات القدرة النافذة

(١) الطبري، جامع البيان،(٢٥/ ٥٦).

(٢) السعدي،عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،ص٧٠٨ .

والحق الكامل بأن يعبد وحده دون سواه، وإبطال قول من يعبد غير الله، وأن كل من في السموات و من في الأرض فهو ملك لله ، ومن الواجب عليهم اتباع صراطه الذي بينه لهم، ثم قال ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي: هو الملك العلي العظيم ، الذي يصير إليه الخلائق ، وتصعد إليه الأعمال، فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

رابعا : المناسبة بين فاتحة سورة الزخرف وخاتمتها [1]

افتتحت هذه السورة الكريمة بمجموعة من الآيات العظيمة: قال تعالى﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الزخرف:١-٥]

فهذه الافتتاحية الكريمة لسورة الزخرف تتضمن الإشادة والتمجيد للكتاب العزيز والثناء عليه، وعضد ذلك بالقسم به بقوله: { حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [الزخرف:١-٤].

إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ }

(١) ذكر السيوطي في مراصد المطالع خاتمتين قال: في أولها{ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم}[٩]،وفي آخرها { ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض}[٨٧]، وفي أولها{صفحا}[٥]وفي آخرها{فاصفح عنهم} وقد اخترت الخاتمة الثانية لمناسبتها للمنهج المتبع.

فوصف الله تعالى القرآن العظيم بصفته المعلومة لدى عقلاء القوم، وهو كونه عربيا، ثم وصفه بصفة غير معلومة، وهي من الغيب المستور وهي: { وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم}،وهو وصف عظيم للوح المحفوظ.

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية:" بين شرفه في الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى{وإنه} أي القرآن، { في أم الكتاب} أي اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس ومجاهد،{لدينا} أي عندنا، قاله قتادة وغيره،{لعلي} أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل قاله قتادة،{حكيم} أي محكم بريء من اللبس والزيغ، فالملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم"[١]. ثم قال تعالى في الآية التي تليها:

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قال الإمام ابن الزبير في هذه الآية:" لما أوضح الله عظيم حال الكتاب وجليل نعمته به، أردف ذلك بذكر سعة عفوه، وجميل إحسانه إلى عباده، ورحمتهم بكتابه، مع إسرافهم وقبح مرتكبهم "[٢].

فالآية الكريمة تخبر عن حالة شنيعة يطالب بها هؤلاء القوم المعاندون الجاحدون أي: "أفنضرب عنكم ونترككم أيها المشركون فيما تحسبون، فلا نذكركم بعقابنا من أجل أنكم قوم مشركون"[٣].

وقد روى الإمام البخاري في صحيحه في تفسير الآية " {أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين} :مشركين، والله لو أن هذا القرآن رفع،

---

(١) ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،(٧/ ٢١٨).

(٢) ابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن،ص١٦٢ .

(٣) الطبري، جامع البيان،(٢٥/ ٥٩) .

حيث رده أوائل هذه الأمة لهلكوا،{فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين} عقوبة الأولين"[1].

ثم قال تعالى في الخاتمة الكريمة:﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَـٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾[الزخرف:٨٨-٨٩].

فقد تضمنت هذه الخاتمة الكريمة شكاية النبي ﷺ من قومه واستغاثته من كفرهم وعتوهم، فناسب أولها آخرها.

وقد جاء في افتتاحية السورة قوله تعالى﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ ﴾

لكن الصفح المأمور به في ختام السورة غير الصفح المنكر وقوعه في البداية مع توافقهم في اللفظ، ففي قوله تعالى { أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين} ،فالصفح هو:"الإعراض بصفح الوجه وهو جانبه، وهو أشد الإعراض عن الكلام، لأنه يجمع ترك استماعه، وترك النظر إلى المتكلم. فالآية استفهام إنكاري أي: أتحسبون أن إعراضكم عما نزل من هذا الكتاب يبعثنا على أن نقطع عنكم تجديد التذكير بإنزال شيء آخر من القرآن، بدعوى قلة الجدوى من تذكيرهم بسبب استمرار إعراضهم، فهذا ليس بسبب في قطع الإرشاد عنهم لأن الله مريد لصلاحهم، لذا أنكر عليهم هذا الإعراض"[2].

{ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَـٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ } قال الإمام الشنقيطي:" وهذه الآية الكريمة تضمنت ثلاثة أمور: الأول: أمره ﷺ بالصفح عن الكفار، الثاني: أن يقول لهم سلام، و الثالث: تهديد الكفار، بأنهم سيعلمون حقيقة الأمر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير،٤٣-سورة حم الزخرف، باب(٢){أفنضرب عنكم الذكر صفحا} معلقا، قال ابن حجر: ووصله ابن أبي حاتم من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، انظر: العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري،(٨/ ٥٦٩) .

(٢) ابن عاشور: التحرير والتنوير(٢٥/ ١٦٣) (بتصرف).

وصحة ما يوعد به الكفار من عذاب النار، والصفح هو: الإعراض عن المؤاخذة بالذنب، قال بعضهم: هو أبلغ من العفو، أما معنى السلام في الآية فهو: إخبارهم بسلامة الكفار من أذاهم، ومن مجازاتهم لهم بالسوء، أي: سلمتم منا لا نسافهكم، ولا نعاملكم بمثل ما تعاملوننا"[١].

وقد يتبادر إلى الأذهان في نهاية هذه السورة الأمر بالملاينة والمداراة للكافرين، لكن سياق هذه السورة وما ختمت به تدل على المتاركة وهو الصفح المقرون بالقوة بالإعراض عنهم، " فالفاء فصيحة ، أفصحت عن أمر مقدر، أي إذا قيل لك ذلك القول، وفوضت الأمر إلينا، فسأتولى الانتصاف منهم، فاصفح عنهم، أي أعرض عنهم ولا تحزن لهم، وقل لهم:إن جادلوك: سلام أي سلمنا في المجادلة وتركناها، وأصل سلام مصدر جاء بدلا من فعله، فأصله النصب، وعدل إلى رفعه، لقصد الدلالة على الثبات، وفرع عليه(فسوف تعلمون)تهديدا لهم ووعيدا، وحذف مفعول { تعلمون}للتهويل، لتذهب نفوسهم كل مذهب ممكن"[٢].

قال الإمام البقاعي:" فقد رجع آخر السورة على أولها وانعطف مفصلها على موصلها، واتصل من حيث كونه في الوحي الهادي في أول الزخرف على أتم عادة لهذا الكتاب المنير من اتصال الخواتم فيه بالبوادي والروائح بالغوادي"[٣].

وما جاء في الخاتمة البديعة من الأمر بالإعراض والتسليم في الجدال والوعيد ما يؤذن بانتهاء الكلام في هذه السورة وهو من براعة المقطع.

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،(٤/ ٤٩٧) .
(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ٢٧٣)(بتصرف) .
(٣) البقاعي، نظم الدرر،(٦/ ٦٥٧).

خامسا: المناسبة بين فاتحة سورة الدخان وخاتمتها (١)

جاء في افتتاحية سورة الدخان قوله تعالى﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:١-٦].

وهذه الآيات تشكل إضافة رائعة في تعظيم هذا الكتاب في مجموع سور آل حم، واستهلال رائع في بيان زمان نزول هذا الكتاب المبين بعد القسم به في سورتي الزخرف والدخان، ثم ذكر جل جلاله الليلة التي نزل فيها وهي ليلة القدر وهي ليلة مباركة عظيمة فيها تقدر الأمور، ورجح هذا القول الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية بقوله:" أن المعني بقوله { إنا أنزلناه في ليلة مباركة} ليلة القدر، والهاء في قوله{ فيها} من ذكر الليلة المباركة، وعنى بقوله { فيها يفرق كل أمر حكيم} في هذه الليلة يقضى ويفصل في كل أمر أحكمه الله تعالى في تلك السنة إلى مثلها من السنة الأخرى"(٢).

"فبركة الليلة التي أنزل فيها القرآن بركة قدرها الله لها قبل نزول القرآن ليكون القرآن بابتداء نزوله فيها ملابسا لوقت مبارك فيزداد بذلك فضلا وشرفا، وهذا من المناسبات الإلهية الدقيقة التي أنبأنا الله ببعضها"(٣).

---

(١) قال السيوطي في مراصد المطالع، الدخان:بدئت بذكر القرآن وختمت به، وأولها {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين[١٠]وآخرها{ فارتقب إنهم مرتقبون}[٥٩] ، وهو ما كان الحديث عنه في هذه الخاتمة.

(٢) الطبري، جامع البيان،(٢٥/ ١٣٠) .

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير،(٢٥/ ٢٧٨) .

ثم قال تعالى {﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ ﴾[الدخان:٩-١٤].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه((فإن رسول الله ﷺ لما رأى قريشا استعصوا عليه، فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأخذتهم السنة حتى حصت كل شيء، حتى أكلوا العظام والجلود، وقال أحدهم:حتى أكلوا الجلود والميتة، وجعل يخرج من الأرض كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان، فقال:أي محمد، إن قومك قد هلكوا، فادع الله أن يكشف عنهم، فدعا، ثم قال: تعودوا بعد هذا، ثم قال{فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين} إلى {عائدون} يكشف عنهم عذاب الآخرة، فقد مضى الدخان والبطشة واللزام، وقال أحدهم:القمر، وقال الآخر الروم))[١].

وروى البخاري في صحيحه عن مسروق في تفسير سورة الروم قال: ((بينما رجل يحدث في كندة فقال: يجيء دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمن كهيئة الزكام،ففزعنا، فأتيت ابن مسعود رضي الله عنه وكان متكئا، فغضب فجلس، فقال: من علم فليقل، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم))[٢]،ثم ذكر الحديث السابق.

قال الإمام ابن حجر في شرح الحديث:" وهذا الذي أنكره ابن مسعود[أي: الدخان] قد جاء عن علي رضي الله عنه، فأخرج ابن أبي حاتم من طريق الحارث

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، ٤٤-سورة حم الدخان، باب(٥){ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون} ، ح(٤٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، ٣٠-سورة الروم، ح(٤٧٧٤)، وصحيح مسلم ،كتاب صفات المنافقين، باب الدخان،ح(٢٧٩٨) .

بن علي قال: آية الدخان لم تمض بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وينفخ الكافر حتى ينفد،ثم قال: ويؤيد كون آية الدخان لم تمض بعد ما أخرجه مسلم من حديث أبي شريحة رفعه: ((لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة))[١] الحديث"[٢].

وسواء كان الدخان الذي رآه كفار قريش من الجوع والقحط أم إنه من الآيات المرتقبة قبل قيام الساعة، فقد جرى الوعيد والتهديد للمكذبين بانتظار هذا الدخان، من أجل هذا ختمت هذه السورة الكريمة بقوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الدخان:٥٣-٥٤].

و يوجه الإمام ابن كثير المناسبة بين فاتحة السورة بذكر الكتاب المبين وهذه الخاتمة بقوله:" أي : إنما يسرناه هذا القرآن الذي أنزلناه سهلا واضحا بينا جليا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها،{ لعلهم يتذكرون} أي : يتفهمون ويعملون، ثم لما كان وقع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وعاند وخالف، قال الله تعالى لرسوله مسليا له وواعدا له بالنصر، ومتوعدا لمن كذب بالعطب والهلاك، {فارتقب} أي: انتظر،{ إنهم مرتقبون} أي: فسيعلمون، لمن يكون النصر والظفر، وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين"[٣].

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي الطفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري: به، كتاب الفتن، باب(١٣) في الآيات التي تكون قبل الساعة،ح(٢٩٠١).

(٢) العسقلاني، فتح الباري،(٨/ ٥٧٣-٥٧٤) (بتصرف) .

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ،(٧/ ٢٦٣) .

والضمير في {يسرناه} تعود إلى الكتاب المذكور في قوله تعالى{ والكتاب المبين}،" والذي كان جل غرض السورة في إثبات إنزاله من الله،كما أشار إليه افتتاحها بالحروف المقطعة، وقوله{والكتاب المبين} فهذا التفريع مرتبط بذلك الافتتاح، وهو من رد العجز على الصدر، فهذا التفريع تفريع لمعنى الحصر الذي في قوله{ فإنما يسرناه بلسانك}لبيان الحكمة في إنزال القرآن باللسان العربي المبين، فيكون تفريعا على ما تقدم في السورة، وما تخلله، وتبعه من المواعظ"(١).

وهذه الخاتمة البديعة تضمنت وصفا عظيما لهذا الكتاب المبين متعلقة بالإنسان، فمع بيانه ووضوحه للقارئ، فقد يسره الله بإنزاله بلسان عربي، يقرأه عليهم النبي العربي محمد ﷺ، وهو العربي الذي يتكلم اللغة العربية الفصيحة الواضحة التي لا إشكال فيها ولا تعقيد ولا غموض، كما في بداية السورة بوصفه { والكتاب المبين} .

فهذا الختام تضمن المنة على المؤمنين بتيسير هذا الكتاب المبين لأفهامهم وألسنتهم وعقولهم لكي يرتدعوا عن التكذيب به، واتهام رسوله بالجنون، وبتيسيره للقراءة والفهم والتدبر والعمل لأنه بلسان عربي فصيح، وتهديد المكذبين المعاندين لحجج هذا الكتاب وبيناته ودلائله بالترصد لهم والترقب{فارتقب إنهم مرتقبون} بانتظار ما يحل بهم من العذاب والنكال، مثل ما حل بهم من العذاب، وهذا هو الجزاء العادل لمن أعرض ونكص عن البيان الميسر، والله أعلم.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ٣٢١) .

سادسا : المناسبة بين فاتحة سورة الجاثية وخاتمتها [(١)]

قال تعالى في افتتاحية سورة الجاثية ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ ﴾ [الجاثية:١-٦].

هذه الافتتاحية كالدرة المصونة بما تضمنته من المعاني العظيمة والدلائل الجليلة، فهي تأتي متناسقة مترابطة في تمجيد الله وتعظيمه الذي أنزل هذا الكتاب الكريم، وتوجيه النظر إلى الآيات العظيمة المنشورة في الكون الكبير، وهنا تأتي العلاقة الوثيقة بين تعظيم كتاب الله المسطور وكتابه الكوني المنشور فذكر في الآيات الكريمة عدة أدلة للدلالة على وحدانيته وعزته وحكمته منها:

- تنزيل الكتاب خاتم الكتب والمهيمن عليها.
- الدلائل الكونية العظيمة في السموات والأرض.
- خلق الإنسان.
- بث أنواع الدواب من كل نوع .
- اختلاف الليل والنهار .
- إنزال المطر والرزق من السماء.
- إحياء الأرض بعد موتها.
- تصريف الرياح.

(١) قال السيوطي في مراصد المطالع: الجاثية في صدرها { وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا}[٩]، وفي آخرها {ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا}[٣٥].

قال الإمام ابن كثير –رحمه الله-:" يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع ، من الملائكة والجن والإنس، والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه، وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقا، لأن به يحصل الرزق، وتصريف الرياح جنوبا وشاما، ودبورا وصبا، بحرية وبرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر، ومنها ماهو للقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم ، ومنها ما هو ينتج، وقال أولا { لآيات للمؤمنين}ثم {يوقنون} ثم{ يعقلون} وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف وأعلى"(١).

ويوجه الإمام الرازي هذا الترتيب القرآني لهذه المقامات العظيمة بقوله:" أنه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع، أولها: يؤمنون، وثانيها: يوقنون، وثالثها: يعقلون، وأظن أن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم من لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العقلاء المجتهدين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل "(٢).

ثم جاءت الخاتمة البديعة التي تناسب هذا المقام الشريف، قال تعالى﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧].

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٦٤) .

(٢) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر الشافعي، التفسير الكبير، (٢٧/ ٢٢٣) .

قال الإمام الطبري في تفسير هذه الخاتمة:" يقول تعالى ذكره"{فلله الحمد} على نعمه وأياديه عند خلقه، فإياه أحمدوا أيها الناس، فإن كل ما بكم من نعمة فمنه، دون ما تعبدون من آلهة ووثن، ودون ما تتخذونه من دونه رباً، وتشركون به معه،{رب السموات والأرض} يقول: مالك السموات السبع، ومالك الأرضين السبع، و{رب العالمين} يقول: مالك جميع ما فيهن من أصناف الخلق، {وله الكبرياء في السموات والأرض}يقول: وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد، {وهو العزيز} في نقمته على أعدائه، القاهر كل ما دونه، ولا يقهره شيء،{ الحكيم}في تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم، فيما شاء كيف شاء"(١).

فكأنما ابتدأت الرحلة الإيمانية في تلك الفاتحة الكريمة التي خاطبت العقول السليمة، وما تلاها من التقريع والتوبيخ لمن أعرض عن هذه الآيات التي تناولتها السورة في أولها وآخرها، قال تعالى﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الجاثية:٦-٧] ، قال الإمام ابن الزبير:" لما قدم ذكر الكتاب وعظيم الرحمة، وجليل بيانه، وأردف ذلك بما تضمنته سورة الشريعة (الجاثية)من توبيخ من كذب به، وإنه قد ذكر من دلائل السموات والأرض في صدر السورة ما كل قسم منها كاف في الدلالة وقائم بالحجة، ومع ذلك فلم يجد عليهم إلا التمادي في ضلالهم، والإنهماك في سوء حالهم وسيء محالهم" (٢).

(١) الطبري، جامع البيان،(٢٥/ ١٨٥) .

(٢) ابن الزبير،البرهان،ص١٦٥ (بتصرف).

من أجل هذا المعنى التحمت الآيات في السورة تقريعا وتوبيخا ووعيدا وتهديدا إلى آخر السورة، فكان الواقع المناسب لهذا المعنى توجيه الحمد لمن كان له ملك السموات والأرض، وله الوصف الأكمل والأجمل بأن له الكبرياء في السموات والأرض {وهو العزيز الحكيم} عودا على بدء { تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} .

قال الإمام ابن عاشور في تفسيره:﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾" الفاء لتفريع الحمد والثناء على الله تفريعا على ما احتوت عليه السورة من ألطاف الله، فيما خلق وأرشد وسخر وأقام من نظم العدالة، والإنعام على المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن وعيد للمعرضين واحتجاج عليهم، فلما كان ذلك كله من الله كان دالا على اتصافه بصفات العظمة والجلال، وعلى إفضاله على الناس بدين الله، كان حقيقا بإنشاء قصر الحمد عليه، وكل ما سبقه من آيات هذه السورة مقتض للوجوه الثلاثة، ثم اتبع بوصف{رب العالمين} فالعالمين هم: سكان عالم السموات وعالم الأرض تأكيدا لكونهم محقوقين بأن يحمدوه، للإشارة إلى أن استدعاء حمدهم لنفعهم وتزكية نفوسهم، ثم أتبع ذلك بصفتي { العزيز الحكيم}، وبهذه الخاتمة آذن الكلام بانتهاء السورة فهو من براعة الختام"[(١)].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ فالله العزيز الحكيم ﴾ الذي أنزل الكتاب العظيم، وله الدلائل المنشورة في الكون العظيم، وهو المنعم والمتفضل على عباده، فهو المستحق وحده الحمد، و له الكبرياء، بما وصف به نفسه من صفات الجلال والكمال التي جمعها الله في صفة (الكبرياء)،ثم عطف على تلك الصفة العظيم الاسمين الكاملين الموصوف بهما {العزيز

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٥/ ٣٧٨)(بتصرف).

الحكيم}،حتى لا يتطرق شك للقلوب الجافية والأسماع الغافلة من حصول شيء لهم من ذلك الوصف العظيم، فقال تعالى في فاتحة السورة {ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها}، ليصحح لهم الطريق ، وينبه المستكبرين منهم على الواجب عليهم؛من تحقيق الحمد والثناء والتمجيد باتباع أوامره التي أنزلها في كتابه، واجتناب نواهيه، وإلا فلهم العذاب المهين الذي يذل كبرياؤهم الكاذب، ويذهب بكبرهم الجائر.

وفي الحديث عن أبي بكر بن عبدالله بن قيس عن أبيه عن النبي ﷺ قال ((جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)) (1).

وبهذا التفت افتتاحية السورة الكريمة بما تضمنته من الدلائل والصفات بالتفاف بديع بما جاء في خاتمة السورة من البيان والتوضيح.

سابعا : المناسبة بين فاتحة سورة الأحقاف وخاتمتها (2)

بدأت هذه السورة الكريمة بداية مماثلة لسورة الجاثية،﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ [الأحقاف:١-٢].

ثم جاء قوله تعالى﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ ﴾ [الأحقاف:٣-٤].

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب(٨٠)إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى،ح(١٨٠).

(٢) قال السيوطي في مراصد المطالع:الأحقاف:بدئت بذكر خلق السموات والأرض،وختمت به، وهي الخاتمة التي كان الحديث عنها.

هذه السورة ختام سور آل حم فذكر فيها ما يجمع معاني تلك السور الكريمة، فهذه السورة الكريمة من آل حم افتتحت بذكر الكتاب وصفاته العظيمة، وموقف المكذبين المعاندين منه، فجاءت افتتاحية سورة الأحقاف جامعة للمعاني العظيمة المرجوة من إنزال هذا الكتاب، قال الإمام ابن كثير – رحمه الله- في تفسير فاتحة الأحقاف:" يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال{ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق}أي: لا على وجه العبث والباطل، { وأجل مسمى}أي : إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد و لاتنقص، وقوله{ والذين كفروا عما أنذروا معرضون} أي لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل إليهم كتابا، وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أي: وسيعلمون غب ذلك"[١].

وقد تميزت هذه السورة الكريمة بموضوعات متنوعة من العناية بموضوع التوحيد والرسالة والوحي والبعث والجزاء، وقد ذكر الله فيها أمثلة متميزة لم تذكر من قبل في سور آل حم مثل قصة قوم عاد ، وقصة نفر من الجن، ففيها ذكر الجزاء لمن عاند في الإيمان بالله ودلائله ورسله، وهي في قصة قوم عاد، وبيان الجزاء الحسن لمن آمن واستسلم لهذه الآيات البينات كما حدث مع نفر من الجن .

من أجل هذه الوحدة الموضوعية الرائعة في هذه السورة، فجاءت خاتمتها مناسبة لفاتحتها بما ذكر فيها من التمنن والتفضل والإبلاغ بما أعده الله لعباده المؤمنين الصابرين ومن سلك مسلكهم، وما أعده للكافرين الفاسقين قال تعالى { ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٧/ ٢٧٤).

قال الإمام السعدي-رحمه الله- في تفسير هذه الخاتمة البديعة:"ثم أمر تعالى رسوله ﷺ أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم، فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، قاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعا بأمر الله، مقيما على جهاد أعداء الله، صابرا على ما يناله من الأذى، حتى مكن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على سائر الأمم، فﷺ تسليما.

{ولا تستعجل لهم}أي المكذبين المستعجلين للعذاب،فإن هذا من جهلهم وحمقهم{كأنهم حين يرون ما يوعدون لم يلبثوا} في الدنيا،{إلا ساعة من نهار} فلا يحزنك تمتعهم بالقليل، وهم صائرون إلى العذاب الوبيل،{بلاغ} أي هذه الدنيا، متاعها وشهواتها، ولذائذها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل، وهذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الآخرة،فهو أعظم زاد يتزود به الخلائق،{ فهل يهلك} بالعقوبات،{إلا القوم الفاسقون} أي الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل"(١).

فهذه الوصية الكريمة من رب العباد إلى خير العباد بالصبر خاتمة جامعة لما تضمنته من المعاني العظيمة، فالتمنن لأن رسول الله محمد ﷺ من أولي العزم من الرسل الصابرين، وهذا من أعظم المنة والفضل بعد تكذيب هؤلاء المكذبين

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان،ص٧٢٩ (بتصرف).

الجاحدين من خلال ذكر أخبارهم وافترائهم على دين الله عز وجل وشدة عداوتهم لرسوله ﷺ.

قال الطاهر بن عاشور في تفسيره:"وهذه الآية اقتضت أن محمدا ﷺ من أولي العزم لأن تشبيه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل، يقتضي أنه مثلهم، لأنه ممتثل لأمر ربه، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة"[١].

وقد اختلف العلماء في تعداد أولي العزم من الرسل على أقوال، قال الإمام ابن كثير:"وأشهرها أنهم:نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم النبيين كلهم محمد ﷺ، وقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي الأحزاب والشورى، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل ، وتكون {من الرسل} لبيان الجنس، والله أعلم"[٢].

وقد وصف الإمام الزركشي هذه الخاتمة البليغة:"مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى يرتفع معه تشوف النفس إلى ما يذكر بعد ، ومن أوضحه خاتمة سورة إبراهيم{ ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وخاتمة سورة الأحقاف{ بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون}"[٣].

ثم أمره الله عز وجل بأن لا يستعجل بالدعاء على قومه الكفار، لحكمة عظيمة في علم الله العزيز الحكيم، فهذه الدنيا قصيرة وأجلها محدود، وقوله تعالى {كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار } رد إلى صدر السورة في قوله تعالى { ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى

(١) ابن عاشور،التحرير والتنوير، (٢٦/ ٦٧).
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم،(٧/ ٣٠٥).
(٣) الزركشي، البرهان،(١/ ١٨٢).

}، فهذا الأجل المسمى لخلق السموات والأرض على عظمته وما فيه من الدقة والإبداع والإحكام يمر على الكافرين يوم القيامة كأنما هو ساعة من نهار .

" والمعنى: أنهم إذا عاينوا العذاب صار لطول لبثهم في الدنيا والبرزخ، كأنه ساعة من نهار، أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا"(١) .

وبهذا البيان العظيم تختم سور آل حم بختام سورة الأحقاف المتضمن التهديد والوعيد والرجاء والفضل، فكأنما الإعجاز في المناسبة القرآنية في هذه السورة ينضم بعضه إلى بعض في هذه الكلمات الطيبة، التي يختتم فيها العمل والجزاء والأمر والنهي، والله أعلم.

(١) الرازي، التفسير الكبير ، (٢٨/ ٣١) .

الخاتمة

أحمد الله تعالى وأثنى عليه الخير كله بعد إتمام هذا البحث في المناسبة بين فواتح سور آل حم وخواتمها في كل سورة من سورها المباركة، التي أمضيت في قراءتها وتدبر آياتها سنوات عدة، حتى أنعم الله تعالى علي بهذا البحث، الذي لن تنتهي بيناته ومناسباته ودلائل إعجازه {تنزيل من حكيم حميد}، سائلة المولى الكريم أن يكون إشراقة مضيئة في علوم القرآن الكريم وبيان الإعجاز العظيم في ثنايا مناسبة الفواتح والخواتم في سور آل حم، وأوجز الكلام فيما توصلت إليه من نتائج بما يلي:

- علم مناسبات القرآن الكريم علم عظيم، لا ينتهي أثره والبحث فيه، مع الإفادة من كلام المتقدمين والمتأخرين في هذا النوع من علوم القرآن الكريم بتوخي الحذر من التكلف في إيجاد المناسبات القرآنية تجنبا للتفسير بغير علم.
- الاهتمام بمعرفة المناسبة بين فواتح و خواتم السور له أصول سابقة وثنايا لاحقة، فيجب العناية بشأنه، بالتدبر في اللفظ والمعنى في فواتح السور وخواتمها.
- سور آل حم سور مكية مجيدة، آياتها حكيمة، تصف هذا الكتاب في مجموعها، وتبين إعجازه ودلائله وحججه وبراهينه بالقول الفصل، وتبحث في طريقة الجاحدين لهذا القرآن الكريم بالمناقشة والتفصيل والجواب المتناسق الجميل، فحديثها عن القرآن الكريم سلسلة متدلية، حلقاتها متراصة، وروابطها متماسكة، فهي بناء ملتحم بين السور والآيات.
- افتتاحية سور آل حم اتفقت في ذكر الكتاب الحكيم وتحدي العرب به، فكانت الخواتم مناسبة لهذه الفواتح البديعة، ومثالا لقوة التحدي العظيمة

المعجزة بمناسبة فواتحها لخواتمها في كل سورة منها، لهذا يجدر بالباحثين تقصيه والكتابة فيه، ليكون شاهدا على هذا الإعجاز في المناسبة بين الفواتح والخواتم.

- خواتم سور آل حم اتفقت على غرض التهديد والوعيد وتناولت ذلك بأسلوب بليغ، ونوعت في عرضه بالأمر برؤية الآيات، والدعوة إلى تحقيق النظر، والترقب والترصد، وطلب التحميد والتمجيد، والرجاء والتفضيل، لبيان إعجاز هذه الخواتم فيما بينها وترابطها وتناسقها، فكأنما اتفاق الفواتح ب (حم) فاتفقت الخواتم بعظيم الإعجاز والتنسيق.

وختاما : أوصي الباحثين والمهتمين بعلوم القرآن الكريم إلى النظر الفاحص والتدبر الأمثل في هذا الكتاب المبين وعلومه وأسراره، وأن يستغرق ذلك جهدهم لما فيه من الخير العظيم والفلاح المبين، وهو المعين على ذلك ، إنه نعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: عبدالكريم العزباوي، ومحمد علي النجار، -بدون بيانات-.

٢. الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي: بيروت،١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تفسير البغوي (معالم التنزيل)، حققه : محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش،الطبعة الرابعة-الرياض:دار طيبة،١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٤. البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر،نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق وتنسيق: عبدالرزاق بن غالب المهدي- الطبعة الأولى- بيروت :دار الكتب العلمية ،١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٥. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب الطبعة الأولى- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٦. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ،تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني-بيروت: دار الكتاب العربي-بدون تاريخ النشر-.

٧. ابن الزبير، البرهان في تناسب سور القرآن، تقديم وتحقيق : الدكتور سعيد جمعة الفلاح،-الطبعة الأولى- دار ابن الجوزي: الدمام،١٤٢٨هـ.

٨. الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين ، تحقيق : أبو عبدالله عبدالسلام بن محمد بن عمر علوش-الطبعة الأولى- دار المعرفة : بيروت ،١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

٩. حيدر،(د)حازم سعيد، علوم القرآن بين البرهان والإتقان (دراسة موازنة)، الطبعة الثانية،دار الزمان: المدينة المنورة،١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٠. الزحيلي،(الأستاذ الدكتور) وهبة، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج،الطبعة الثانية،دار الفكر:دمشق،١٤١٨هـ/ ١٩٩٨.

١١. الزركشي،بدر الدين ،البرهان في علوم القرآن ،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم صيدا : المكتبة العصرية، بدون تاريخ النشر.

١٢. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان -الطبعة الأولى- عنيزة : مركز صالح بن صالح الثقافي، ١٤٠٧هـ.

١٣. السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،الطبعة الثالثة- مكتبة دار التراث –القاهرة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٤. معترك الأقران في إعجاز القرآن،تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي.

١٥. الشنقيطي ،محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، أضواء البيان في توضيح القرآن بالقرآن، وتتمته لتلميذه:عطية محمد سالم،الطبعة الأولى-دار إحياء التراث العربي: بيروت،١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٦. الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق:د.عبالدرحمن عميرة،-الطبعة الثانية-دار الخاني:الرياض –دار الوفاء: المنصورة،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م .

١٧. الطبري،أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ضبط وتعليق : محمود محمد شاكر-الطبعة الأولى- بيروت:دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

١٨. أبو عبيد،القاسم بن سلام،فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، دراسة وتحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياطي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: المملكة المغربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٩. العسقلاني، أحمد بن علي حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه: محمد فؤاد عبدالباقي، وقرأ أصله وأشرف عليه: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز،مكتبة الرياض الحديثة: الرياض.

٢٠. ابن عطية، أبو محمد عبدالحق الأندلسي،المحرر الوجيز ، تحقيق: مجموعة من المحققين - الطبعة الأولى- الدوحة : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.- بدون تاريخ النشر.

٢١. ابن عقيلة، محمد بن أحمد المكي، الزيادة والإحسان في علوم القرآن،الطبعة الأولى-مركز البحوث والدراسات: جامعة الشارقة،١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢٢. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ،وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى-دار الكتب العلمية:بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م .

٢٣. القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبدالرزاق المهدي،الطبعة الأولى،بيروت:دار الكتاب العربي،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٤. قطب،سيد، في ظلال القرآن -الطبعة الثانية عشرة- جدة : دار العلم للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٢٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة: الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٦. ابن منظور، لسان العرب ،تنسيق وتعليق : علي شيري-الطبعة الثانية-بيروت: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي،١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٢٧. موسوعة الكتب الستة، إشراف: الشيخ صالح آل الشيخ،-الطبعة الأولى-دار السلام: الرياض، ١٤٢٠هـ.

المجلات والدوريات:

- الأحمدية، مجلة علمية دورية محكمة تعنى بالدراسات الإسلامية وإحياء التراث،دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث:دبي،العدد الرابع،جمادى الأولى ١٤٢٠هـ/ أغسطس١٩٩٩م.
- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس والعشرون، المحرم١٤٢٠هـ: الرياض،ص٩٣-١٤٠.